

حروف المعاني : دراسة في التاريخ والمنهج

حمداد بن عبد الله
أستاذ مساعد مكلف بالدروس
معهد الأدب واللغات
المركز الجامعي د. مولاي الطاهر (سعيدة)

إن فقه حروف المعاني نقل علماء العربية إلى آفاق عالية ، وكان ذلك حين التفافهم حول القرآن الكريم يدققون النظر فيه ، فيفسرونه ويستضيفون معانيه ويستنبطون الأحكام . ولعل الانبهار الشديد بهذا الكتاب المقدس جاءهم من إدراك هؤلاء وفهمهم لمجموعة من القواعد الأساسية في لغة الضاد ، لعل أولها إعجاز النظم والتأليف فيه وكذا فلسفة الحروف . وقديماً أشار ابن هشام الأنصاري في مؤلفه الشهير "مغني اللبيب" أن اللغة العربية يمكن أن يكون لها مدخل من حروف المعاني .

ونظراً لدوران هذه الأدوات الدالة على المعاني في كلام العرب، فقد اهتم بها العلماء بحثاً في التراكيب، فأبرزوا الدور الدلالي للأدوات والمعاني المختلفة للأداة التي تعتور التراكيب ونظم الكلام.

وقد عدّ هؤلاء حرف المعنى قسم من ثلاثة أقسام كلام العرب ، إذ قسم نخبة العربية الكلام إلى ثلاثة أنواع هي : الاسم والفعل والحرف ، فبينوا في مظان النحو بعد التعريف بكل قسم علامات ، وخواص هذه الأقسام. وقد أشار إلى ذلك التقسيم ابن مالك في مبتدأ ألفيته الشهيرة فقال :

كلامنا لفظ مفيد : كاستقيم واسم وفعل ثم حرف الكلم

وإذا كان النحاة قديماً قد جنحوا إلى مثل هذا التقسيم ، فقد نسب السيوطي في حديثه عن أسماء الأفعال إلى ابن صابر قسماً رابعاً زائداً على أقسام الكلمة الثلاثة سماه الخالفة. (1)

وقد عرّف أحد الباحثين هذا المصطلح بقوله : " كل كلمة يطلقها المتكلم للإفصاح عن موقف انفعالي أو تأثري " (2). كما حاول بعض الدارسين العرب المحدثين وضع تقسيم جديد للكلام العربي ، فكان التقسيم السباعي الذي أشار إليه تمام حسان في كتابه : " اللغة العربية معناها ومبناها " ، وفاضل مصطفى الساقي في كتابه : " أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة " . ومباني هذا التقسيم هي : الاسم ، والصفة ، والفعل والضمير والخالفة ، والظرف والأداة ، ولم يذكر الحرف ، وذلك لأن الأداة كما يراها مبني تقسمي يضم حروفاً وأسماء ، وأفعلاً ، فتكون إذن أشمل وأعم من الحرف وربما أدق .

وكان جلال الدين السيوطي قد تمسك بالتقسيم الثلاثي معلاً بقوله : " إن العبارات بحسب المعبر ، والمعبر عنه من المعاني ثلاث : ذات وحدث عن ذات ، وواسطة بين الذات والحدث ، يدل على إثباته لها أو نفيه عنها ، فالذات الاسم ، والحدث الفعل والواسطة الحرف . ومنها قول بعضهم : إن الكلمة إما أن تستقل بالدلالة على ما وضعت له أولاً تستقل ، وغير المستقل الحرف ، والمستقل إما أن تشعر مع دلالتها على معناها بزمنه الحاصل أولاً تشعر ، فإن لم تشعر فهي الاسم ، وإن شعرت فهي الفعل . ومنها قول بعضهم : إن الكلمة إما أن يصح إسنادها إلى غيرها أولاً ، إن لم يصح فهي الحرف ، وإن صحّ فيما أن يقترن بأحد الأزمنة الثلاثة أولاً ، إن اقترنت فهي الفعل ، وإلا فهي الاسم " (3) ، ويتبدى أن هذا التعليل هو الأقرب إلى المنطق والصواب كما أتصور .

وبصدد التفريق بين الأداة والحرف ذهب ابن هشام إلى القول : " وأعني بالمفردات الحروف ، وما تضمّن معناها من الأسماء ، والظروف فإنها المحتاجة إلى ذلك . وقد رتبته على حروف المعجم ، ليسهل تناولها . وربما ذكرت أسماء غير تلك وأفعالاً لمسييس الحاجة إلى شرحها " (4) . وقد ذكر السيوطي في هذا المساق فقال : " وأعني بالأدوات الحروف وما شاكلها من الأسماء ، والأفعال والظروف " (5) ، وهكذا نرى أنّ الأداة لا ترادف دائماً ما نسميه في النحو "الحرف" ، فقد تكون حرفاً أو اسماً ، أو فعلاً أو عبارة كاملة (6) . ولعلّ ابن منظور كان يقصد بالأداة الحرفية حينما قال : " والحرف : الأداة التي تسمى الرابطة لأنها تربط الاسم بالاسم ، والفعل بالفعل كعن وعلى ، ونحوهما " (7) . ويتبين مما أوردناه أن الأداة أشمل وأعم من الحرف ، لأنها تضم كل أنواع الكلام في العربية. لكن أحد المعاصرين ذهب إلى رأي مخالف فقال: " بيد أن دقة التوظيف توجب وضع حد فاصل بين دلالة كل منهما. فالأول أن يطلق تعبير "الأدوات" على أدوات الإعراب، سواء كانت عاملة أو غير عاملة مع إطلاق حروف المعاني على مسمى أكثر شمولاً

الحرف من حيث اللغة والاصطلاح. (8)

أ- المفهوم اللغوي : الحرف لغة الطرف ، ومنه قولهم : حرف الجبل ، أي طرفه وهو أعلاه المحدّد . وقد يدل على الوجه الواحد نحو قوله تعالى: " ومن الناس من يعبد الله على حرف " (9) أي على وجه واحد . وهو أن يعبد الله على السراء دون الضراء ، أي يؤمن بالله ، مادامت حالة حسنة ، فإن غيرها الله وامتنحه كفر به ، وذلك لشكّه وعدم طمأنينته ، والحرف هو الناقصة الضامرة الصلبة ، تشبيهاً لها بحرف السيف ، وقيل هي الضخمة ، تشبيهاً لها

بحرف الجبل . وكان الأصمعي يقول : الحرف الناقية المهزولة ، والطرف والجانب ⁽¹⁰⁾ . وقد أفصح عن ذلك ابن منظور في اللسان فقال : " حرف كل شيء طرفه وشفيره وحده ، ومنه حرف الجبل وهو أعلاه المحدد ، وحرف الشيء ناحيته وفلان على حرف من أمره أي ناحية من كأن ينتظر ، ويتوقع فإن رأى من ناحية ما يحب ، وإلا مال إلى غيرها" ⁽¹¹⁾ .

وقد سميت حروف المعجم حروفاً لأنها جهات للكلام ونواح كحروف الشيء وجهاته المحدقه به ⁽¹²⁾ . والحرف الكلمة واللغة واللهجة والطريقة الوجه . فقد نقل صاحب اللسان عن الأزهري أن كل كلمة تقرأ على الوجوه من القرآن تسمى حرفاً ، تقول هذا في حرف ابن مسعود أي في قراءة ابن مسعود ⁽¹³⁾ . والحرف القراءة التي تقرأ على أوجه ، وما جاء في الحديث من قوله عليه السلام ، نزل القرآن على سبعة أحرف كلها شاف كاف ، أراد بالحرف اللغة ⁽¹⁴⁾ .

ب- المفهوم الاصطلاحي : جعل أبو القاسم الزجاجي الحروف على ثلاثة أضرب ، حرف المعجم التي هي أصل مدار الألسن عربيها وعجميها ، وحروف الأسماء والأفعال ، والتي هي أبعاضها نحو العين من جعفر ، والضاد من ضرب ، وما أشبه ذلك ، ونحو النون من لن ، واللام من لم وما أشبه ذلك ، وحروف المعاني التي تجيء مع الأسماء والأفعال لمعان . فأما حروف المعجم فهي أصوات غير مؤلفة ، ولا مقترنة ولا دلالة على معنى من معاني الأسماء والأفعال والحروف إلا أنها أصل تركيبها . وأما حروف أبعاض الكلم ، فالبعض حدّ منسوب إلى ماهو أكثر منه ، كما أن الكل منسوب إلى ماهو أصغر منه .

وأما حدّ حروف المعاني وهو الذي يلتمسه النحويون ، فهو أن يقال : الحرف ما دلّ على معنى في غيره نحو : "من" و "إلى" و "ثم" ،

وشرحه أن "من" تدخل في الكلام للتبعيض فهي تدلّ على تبعيض غيرها لا على تبعيضها نفسها ، وكذلك إذا كانت لا ابتداء الغاية كانت غاية غيرها وكذلك سائر وجوهها . وكذلك "إلى" تدل على المنتهى ، فهي تدل على منتهى غيرها لا على منتهى نفسها ، وكذلك سائر حروف المعاني .⁽¹⁵⁾ فالحرف مشروط في إفادة معناه الذي وضع له انضمامه إلى غيره .

وبناءً على هذا التقسيم لدى الزجاجي ذهب أحد الباحثين الحديثين⁽¹⁶⁾ إلى تقسيم الحرف من جهة التعريف الاصطلاحي إلى ثلاثة أقسام:

1- من حيث المبنى: وهي تلك الحروف التي تتركب منها الكلمات، وتدعى حروف الهجاء.

2- من حيث المعنى : وهي " ما جاء لمعنى وليس بإسم ولا فعل "⁽¹⁷⁾ أو ماء جاء : " الزيادة ضرب من التأكيد "⁽¹⁸⁾ ، أو بعبارة أخرى هو : " ما دلّ على معنى في غيره "⁽¹⁹⁾ . وقد أسهب ابن يعيش في تبين هذا القسم عندما ذكر : " والحرف كلمة دلّت على معنى في غيرها فقولنا : كلمة جنس عام يشمل الاسم والفعل والحرف ، وقولنا دلّت على معنى في غيرها فصل مّيزه من الاسم والفعل ، إذ معنى الاسم والفعل في أنفسهما ، ومعنى الحرف في غيره ، ألا تراك إذا قلت : الغلام فهم منه المعرفة ، ولو قلت : "أل" مفردة لم يفهم منه معنى ، فإذا قرن بما بعده من الاسم أفاد التعريف في الاسم فهذا معنى دلّته في غيره "⁽²⁰⁾.

3- من حيث الوظيفة التركيبية : وهو الأداة التي تسمى الرابطة لأنها تربط الاسم بالاسم ، والفعل بالفعل "كعن" و "على" ونحوهما ؟ قال ابن منظور : " كل كلمة أداة عارية في الكلام لتفرقة المعاني واسمها حرف ، وإن كان بناؤها بحرف أو فوق ذلك مثل : حتى ، وهل ، وبلى ، ولعل "⁽²¹⁾ ، وأعتقد أن هذه التعريفات الفرعية تنحصر في نوعين للحرف هما : حرف المبنى

وحرف المعنى . وإضافة إلى ذلك هناك ما يسمى الحروف المقطعة، وهي تلك التي يفتح بها بعض السور من القرآن الكريم.

وكان النحاة⁽²²⁾ يقصدون في تقسيمهم الثلاثي ، اسم ، وفعل ، وحروف جاء لمعنى ، هذا النوع من الحرف " ودعوى دلالة الحرف على معنى في غيره ، وهذا وإن كان مشهوراً بين النحويين إلا أن الشيخ بهاء الدين ابن النحاس نازعهم في ذلك وزعم أنه دالّ على معنى في نفسه، وتابعه أو حيان في شرح التسهيل⁽²³⁾.

ولا أحسب أن الحرف دالّ على معنى في نفسه ، بل العكس هو الصحيح ، وقد أوضح المرادي هذه المسألة فقال : " فإن قيل : ما معنى قولهم الحرف يدل على معنى في غيره؟ فالجواب: معنى ذلك أن دلالة الحرف على معناه الإفرادي متوقفة على ذكر متعلقه بخلاف الاسم والفعل، فإن دلالة كل منهما ، على معناه الإفرادي ، غير متوقفة على ذكر متعلق ، ألا ترى أنك إذا قلت "الغلام" فهم منه التعريف . وكذلك "باء" الجر فإنها لا تدلّ على الإلصاق ، حتى تضاف إلى الاسم الذي بعدها ، لا إنه يتحصّل منها مفردة ، وكذلك القول في سائر الحروف⁽²⁴⁾.

وذلك أن الحرف يكتسب معناه من وجوده في السياق ، ومن ارتباطه بعناصر الجملة، وهكذا أضحي معنى الحرف خاصاً به يعرف به حتى وإن كان خارج السياق فيتبادر إلى الذهن مثل التعريف في "أل" والظرفية عندما نسمع "في" ، والإلصاق في "الباء" وهكذا .

وفي هذا السياق ذهب محمد حماسة عبد اللطيف قائلاً : " والواقع أنّ دراسة حروف المعاني دراسة للتركيب الذي يكون فيه "الحرف" بمفرده وعلاقاته الأخرى . فعلى سبيل المثال ، الذي يجعل "أو" للتخيير ، وهو ما يمتنع فيه الجمع نحو : " تزوّج هنداً أو أختها" أو يجعلها للإباحة ، وهي ما

يجوز فيه الجمع نحو : جالس العلماء أو الزهاد إنما هو الدلالة الملائمة للكلام" (25).

وقد ذكر ابن هشام لـ "أو" اثني عشر معنى ، وعلق عليها قائلاً : " التحقيق أن "أو" موضوعة لأحد الشيئين أو الأشياء ، وهو الذي يقولون المتقدمون ، وقد تخرج إلى معنى "بل" وإلى معنى "الواو" ، وأما بقية المعاني فمستفادة من غيرها" (26). وعلق صاحب الحاشية على المغني على قوله "من غيرها" ففسره قائلاً : " كقرائن المقام وقرائن المقام قد تكون حالية أو مقالية" (27).

وذهب السيوطي إلى ما ذهب إليه ابن السراج ، فهو يرى أن الحرف إما أن يجيء لمعنى في الاسم خاصة نحو "لام" التعريف ، وحرف الإضافة ، والنداء وغير ذلك ، أو في الفعل خاصة نحو : قد و السين وسوف ، والجوازم والنواصب ، أو ربطاً بين اسمين أو بين فعلين كحروف العطف ، أو بين فعل واسم كحروف الجر ، أو بين جملتين كحروف الشرط ، أو داخلاً على جملة تامة نحو : إن ، أو زائداً للتأكيد نحو الباء في نحو : ليس زيد بقائم. (28).

اهتمام علماء اللغة بهذا المجال من الدرس اللغوي :

لقد زخر تراث العربية بمؤلفات تدرس الحرف بنوعيه : حرف المبنى ، وحرف المعنى نظراً لأهمية هذا الجانب من اللغة ، فقد أتعبت الهمزة أبا عمرو بن العلاء ، وأتعبت تلميذة الخليل بن أحمد ، ولذلك حينما ألف معجم العين لم يبدأ بالهمزة ، لأنها لا استقرار لها ، وأنها أتعبت كل من تصدى لها واختار البدء بالعين .

وقد اهتم علماء اللغة بحروف المعاني خاصة ، بحثاً في التركيب ، فأبرزوا الجانب الدلالي للأدوات ، والمعاني المختلفة للأداة الحرف التي تعتور

التراكيب ، كما اهتموا بها استقصاء وحصرًا ، فأفردوا لها المصنفات ، فنرى الأداة ومعانيها المختلفة المستنبطة من أساليب العرب وطرائقهم في كلامهم . ومن هذه المؤلفات في الحرف بشقيه⁽²⁹⁾ : الحروف للخليل بن أحمد الفراهيدي ، والحروف في اللغة لأبي عمرو الشيباني ، والحروف لابن السكيت ، ومعاني الحروف للرماني ، وحروف المعاني للزجاجي .

وإذا كانت حروف المعاني من الأهمية بمكان ، فنجدها قد حازت جانباً بارزاً ومهماً من جوانب النحو العربي ، فقد انكبّ على ذلك النحاة العرب بالدرس والتحصيل ، وشهدت مناقشات غزيرة بينهم ، وقد كشف ذلك عن مسائل خلاف واسعة النطاق⁽³⁰⁾ .

وقد نشأ هذا العلم في ركاب تفسير القرآن الكريم ، فراح علماء العربية والمفسرون يلتمسون معاني مختلفة للأداة الواحدة في النصوص القرآنية ، حتى يتبين لهم المراد الحقيقي من الآية القرآنية . ولقد كانت أقوال العلماء في معاني الحروف منتشرة بين طيِّات كتب التفسير ، وشروح الدواوين ، والمصنفات النحوية ، واللغوية والبلاغية .

وقد ألفينا في هذا المضمار عناية كبيرة بهذا الموضوع في كتاب إمام النحويين سيويوه إذ أفرد لها باباً خاصاً ، وهو " باب عدة ما عليه الكلم"⁽³¹⁾ . كما تحدّث عن بعضها من النواحي الصوتية والصيغية ، والتركيبية والدلالية في مواطن متفرقة من كتابه ، ونجد مثل هذا الصنيع في كتاب الفراء "معاني القرآن" . وسار أبو الحسن الأخفش على النهج نفسه في مؤلفه "معاني القرآن" فكان يدرس الأداة : صيغها ووظيفتها التركيبية ، ودلالاتها وتعدّد اللغات فيها خلال تفسيره أي الذكر الحكيم .

واقترفى اللغويون اللاحقون طريقة هؤلاء المتقدِّمين ، فبحثوا الأدوات ضمن مصنفاتهم ، كما نرى ذلك جلياً في "المقتضب" للمبرد و " .

مجالس ثعلب" لأبي العباس ثعلب ، و " إعراب القرآن" لأبي إسحاق الزجاج ، وكتابي "الأصول في النحو" و "الموجز" لأبي بكر بن السراج ، و " الجمل في النحو" ، للزجاجي.

وكان الاهتمام بالأدوات وحروف المعاني ، يختلف من مؤلف إلى آخر ، فمنهم من أولى الاهتمام بها ، فأفرد لها باباً أو أبواباً خاصة ضمن مصنفاته كما فعل ابن السراج في كتاب "الأصول في النحو" ، والزجاجي في كتاب "الجمل في النحو" وأبو علي الفارسي في كتابه "الإيضاح العضدي" ، و ابن جني في "اللمع" ، وابن فارس في كتاب "الصاحي" ، وقبلهم ابن قتيبة في كتابيه "تأويل شكل القرآن" و " أدب الكاتب" ، والمبرد في " المقتضب" . وكان أوفاهما ما جاء في كتاب "المفصل" للزمخشري ، و " شرح المفصل لابن يعيش" و " الإيضاح في شرح المفصل" لابن الحاجب .

وكانت معظم كتب النحو واللغة تذكر هذه الحروف في ثنايا حديثها عن قواعد النحو إجمالاً. فلا تفصل الأدوات عن القواعد الأم ، وإنما تنظر إليها على أنها جزء وثيق منها . وبعد ذلك شعر النحاة بضرورة تأليف كتب خاصة ، تضم معاني الحروف ، وتبسط أصولها وأبوابها ، وشواهداها والمذاهب المختلفة فيها .⁽³²⁾ وقد أدركوا أهمية هذا الاتجاه لتعميق البحث فيه ، ولسهولة الرجوع إلى الحروف والأدوات ، دونما عناء عند الحاجة إلى ذلك . فتعرضوا للأداة ، وما تأتي عليه من كلام العرب ، وما قد يرد على معنى الأداة من مناقشات وآراء .

وكان أول من طرق باب التأليف في هذا الميدان، أبا القاسم الزجاجي في كتابيه "حروف المعاني" و "اللامات".

أما كتاب "اللامات" فقد خصّصه لبحث اللامات، ومواقعها في كلام العرب، وكتاب الله تعالى، حيث درس معانيها وتصرفها، والاحتياج

لكل موقع من مواقعها، وما بين العلماء من خلاف حولها.⁽³³⁾ أما كتاب "منازل الحروف" أو "معاني الحروف" للرماني، فقد عرض فيه صاحبه لأهم الأدوات العربية، فذكر المعاني المشهورة لما اختاره من أدوات. وسنضرب مثلاً لطريقة التأليف عنده: "من" على أربعة أوجه ابتداء الغاية نحو: خرجت من بغداد إلى الكوفة، عنيت أن بغداد ابتداء الخروج والكوفة انتهاءه، وكذلك: كتبت من العراق إلى مصر، ومن فلان إلى فلان. ف "من" لابتداء الأفعال و"إلى" لانتهاؤها، وتبعيض نحو: "أخذت من الدراهم درهماً، ومن الثياب ثوباً"، وخذ منها ما شئت "كأنك قلت: خذ بعضها، أي بعض شئت. وتجنيس: نحو قوله جلّ وعزّ: "فاجتنبوا الرجس من الأوثان"⁽³⁴⁾، كأنه يقول: "اجتنبوا الذي هو وثن"، فجيء بـ "من" لتقوم مقام الصفة. وزائدة نحو: "ما جاءني من أحد معني ما جاءني أحد، وكذلك قوله تعالى: "مالكم من إله غيره"⁽³⁵⁾. كأنه قيل: "مالكم إله غيره"⁽³⁶⁾.

أما عن "سر صناعة الإعراب" لابن جني فهو في الحقيقة ليس مؤلفاً يبحث في معاني الحروف، وإنما تحدّث فيه صاحبه عن حروف المعجم، وفيه تركيز واضح على الأصوات وتقلبات الحروف المفرد، وما يعتريه من إبدال وإعلال. فالكتاب إذن يعدّ دراسة مستفيضة للسان العربي، ووصف حروفه، وما تكون عليه، وقد يستطرد ابن جني إلى الحديث عن أحكام الحرف إذا تراكب مع غيره.

ويأتي كتاب "الأزھية" للهروي إذ تأثر فيه صاحبه بمنازل الحروف للرماني، غير أنه لم يلتزم صاحب الأزھية نهجاً واضحاً متسلسلاً مثل ما هو موجود في كتاب "المنازل".

وفي واقع الأمر، إن جميع المحاولات في التأليف في حروف المعاني كان ينقصها الرصد والشمول. ولعل هذا راجع إلى عدم التفكير في هذا الصنيع ، كما أن الأشياء تأتي حسب ما تمليه سنة التطور . وكان المالقي في "رصف المباني في شرح حروف المعاني" هو رائد هذه المحاولة، فقد جمع هذا الكتاب كثيراً من المزايا مثل : التنظيم والتسلسل ، والشمول والاستقصاء والتفصيل⁽³⁷⁾. كما ترك الكتاب أثره الواضح في الكتب التي جاءت من بعده ، مثل كتاب "الجنى الداني" للمرادي ، و "مغني اللبيب" لابن هشام ، كما نقل عنه أبو حيان في "البحر المحيط" ، والأشموني في "شرح الألفية" و السيوطي في "الأشباه والنظائر" ، والأزهري في "شرح التصريح على التوضيح"⁽³⁸⁾.

أما كتاب "الجنى الداني في حروف المعاني" للمرادي فقد بدأ فيه صاحبه بمقدمة عرّف فيها الحرف بشكل عام ، ثم قسم الكتاب إلى أبواب حسب عدد الحروف الذي يتكون منه حرف المعنى.⁽³⁹⁾

وتعدّ هذه المؤلفات من أبرز وأهم معاني الحروف المتخصصة ، إلا أن هناك كتباً أخرى، تناولت هذه الحروف ، ومعانيها ضمن أبواب نحوية أخرى ، وذلك مثل كتاب "الصاحي في فقه اللغة" لابن فارس ، وكتاب "فقه اللغة وسر العربية" لأبي منصور الثعالبي الذي خصص فيه صاحبه عدة فصول قصيرة تناول فيها بعض الحروف ، بدأها بفصل عن الألفات ، فالباءات ، فالتاءات ، فالسينات ، فالفاءات ، فالكافات ، فاللامات ، فالميمات ، فالنونات ، فالهاءات ، فالواوات ، ثم عالج وقوع حروف المعنى مواضع بعض في فصل مجمل .

أما أوسع هذه الكتب وأشهرها ، فهو كتاب "مغني اللبيب عن كتب الأعاريب" لابن هشام الأنصاري . فلم يكن هذا المصنف مقصوداً

على حروف المعاني فحسب ، وذلك لكون ابن هشام قد بَوَّب كتابه ثمانية أبواب ، خصص الباب الأول منها لحروف المعاني ، وانتقى له عنواناً مناسباً ، فأطلق عليه: "في تفسير المفردات وذكر أحكامها" وقد جاء في بداية هذا الكتاب "وأعني بالمفردات الحروف ، وما تضمن معناها من الأسماء والظروف ، فإنها المحتاجة إلى ذلك ، وقد رتبها على حروف المعجم ، ليسهل تناولها ، وربما ذكرت أسماء غير تلك وأفعلاً ، لميسس الحاجة إلى شرحها"⁽⁴⁰⁾. كما خصص الزركشي أيضاً في الجزء الرابع من كتاب "البرهان في علوم القرآن" النوع السابع والأربعين الكلام على المفردات من الأدوات ، والبحث عن معاني الحروف ، مما يحتاج إليه المفسر لاختلاف مدلولها.⁽⁴¹⁾

وقد كان السيوطي من أولئك الذين اهتموا بهذه الحروف ، ويتبدى ذلك خاصة في "الإتقان في علوم القرآن" و "معترك الأقران في إعجاز القرآن" و "مطالع السعيدة في شرح الفريدة". كما تناول حروف المعاني في مباحث متفرقة من كتابه الشهير: "همع الهوامع شرح جمع الجوامع" و "الأشباه والنظائر" و "شرح السيوطي على ألفية ابن مالك المسمى بالبهجة المرضية".

وقد أوماً السيوطي إلى أهمية دراسة هذه الحروف ، فذكر قائلاً: "اعلم أن معرفة ذلك من المهمات المطلوبة لاختلاف مواقعها، ولهذا يختلف الكلام والاستنباط بحسبها كما في قوله تعالى: "وَأَنَا أَوْ يَاكُم لَعَلِي هَدَى أَوْ فِي ضَلَالٍ مَبِين"⁽⁴²⁾ ، فاستعملت "على" في جانب الحق ، و"في" في جانب الضلال ، لأن صاحب الحق مستعل يصرف نظره كيف شاء ، وصاحب الباطل كأنه منغمس في ظلام منخفض لا يدري أين يتوجه ، وقوله تعالى: "فابعثوا أحدكم بورككم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاماً فليأتكم

برزق منه وليتلطف" (43). عطف على الجملة الأولى بالفاء ، والأخيرة بالواو ، ولما انقطع نظام الترتيب ، لأن التلطف غير مرتب على الإتيان بالطعام ، كما كان الإتيان به مترتباً على النظر فيه ، مترتباً على التوجه في طلبه ، والتوجه في طلبه مترتباً على قطع الجدل في المسألة عن مدة اللبث ، وتسليم العلم له تعالى . وقوله تعالى : "إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فرضية من الله والله عليم حكيم" (44) عدل عن "اللام" إلى "في" في الأربعة الأخيرة إيداناً إلى أنهم أكثر استحقاقاً للمتصدق عليهم . من سبق ذكره باللام ، لأن "في" للوعاء ، فنبه باستعمالها على أنهم أحفاء بأن يجعلوا مظنة لوضع الصدقات فيهم كما يوضع الشيء في وعاء مستقراً فيه" (45).

وفي مورد آخر من "معترك الأقران" نوّه بهذه الحروف فذكر : " فقد عملت من هذا أنه لا بد من ذكر معاني هذه الأدوات وتوجيهها . وقد أفردتها بالتصنيف خلائق من المتقدمين والمتأخرين ، كالهروي ، وابن أم قاسم ، وابن هشام ، وأنفعها هذا الكتاب البديع المثال ، المنيع المقال ، بنيت لك مصاعد ترتقي عليها إلى مقاصد ، وتطلع فيه على فهم الكتاب المنزل ، وفتحت لك من كنوزه كل باب مقفل" (46).

وإذا كان القدماء من النحاة واللغويين وحتى البلاغيين قد تناولوا هذا الصنف من الحروف بالدراسة فبحثوا عن بنيتها ووظائفها ودلالاتها ، فلم يأل علماء العربية المحدثون جهداً في مدارستها وتحليلها قصد الولوج إلى كشف النقاب عن أسرارها . فتناولت هذه الحروف من حيث الصوت والنحو ، والبلاغة والدلالة . فظهرت في هذا الصدد بعض الأعمال نشرت في كتب مستقلة وبعضها الآخر في دوريات متخصصة ، كما برزت إلى الوجود معاجم خاصة ، بالحروف ، إضافة إلى ما تضمنته كتب النحو

الحديث والمعاجم النحوية من دراسات حول مختلف الجوانب المتعلقة بالحروف عامة.

ونألف في هذا المجال كتاب "مقدمة لدرس لغة العرب" للشيخ عبد الله العلايلي ، تضمن طروحات جريئة حول ظواهر اللغة العربية ومناهج البحث المعجمي فيها ، ومن بينها ظواهر نشوء الحروف ، وإمكان وجود دلالات لها ، وتطور الأصوات والحروف والصيغ . أما عن "حروف الإضافة في الأساليب العربية" ليوسف نصر ذياب فهو يدرس الحروف العربية عامة ، وحروف الإضافة أو حروف الجر ومعانيها على وجه الخصوص .

وهناك من العلماء من خصّص مؤلفه في دراسة حرف بعينه دون سواه مثل: "اللامات" لعبد الهادي الفضلي ، وفيه يقدّم دراسة نحوية شاملة للامات في اللغة العربية. كما ذهب فريق إلى ربط الحروف بالأساليب المنوطة بها وذلك نحو "أسلوب إذ" لعبد العال سالم مكرم الذي بحث في مصنفه جميع أوجه هذا الحرف من خلا الدراسات القرآنية والنحوية. ومثل ذلك كتاب "الشرط في القرآن" لعبد السلام المسدي ومحمد الهادي الطرابسي ، فتناولوا فيه بالإحصاء والتحليل أدوات الشرط في القرآن الكريم على نهج اللسانيات الوصفية.

ومن المحدثين أيضاً من نهج نهجاً مغايراً فسَلَط الضوء على حروف المعاني بعامة فيما وضعه ، وذلك نحو "حروف المعاني بين دقائق النحو ولطائف اللغة" لمحمود سعيد ، وهو بحث شامل في تلك الحروف يبيّن استعمالها النحوية والفقهية ، و"معجم حروف المعاني" لأحمد جميل شامي قدّم له بشرح عن حروف المعاني ثم أورد لها مرتبة حسب بنيتها . وكذا "معاني حروف المعاني وأصول استعمالها" للأستاذ حسن عباس ، وهي اقرب

ما تكون إلى الدراسات الأنثروبولوجية ، وما يفترض أنه نشأ في كل مرحلة من مراحل تطور الإنسان العربي من حروف المعاني ، كما يقدم تحليلاً للدلالة الذاتية لهذه الحروف ، وغير هذه المصنفات كثر .

وختاماً لا يسعنا إلا أن نشير إلى أن دائرة البحث في الحرف قسيم الاسم والفعل ما فتئت تتسع ، باتساع التنقيب عما توديه هذه الأدوات من أسرار بلاغية رفيعة في القرآن الكريم ، فاقت الأسرار المؤداة في كلام العرب ، وهذا سرّ الإعجاز القرآني ، ولقد كشف أولئك وهؤلاء عن أسرار التضمين والتعديّة ، وعن أسرار التعاقب في سياق الجملة العربية فيما صنفوه عبر الزمان والمكان. وإن توافر تعددية التناول لحرف المعنى يمكننا من وضع معجم شامل راصد لمختلف معانيه وفق ما تقتضيه ملابسات المقال ، وقرائن الأحوال ، ومقاصد الكلام.

الإحالات

- 1- ينظر جلال الدين السيوطي : همع الهوامع، دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت لبنان ، ج 2 ، ص 105. وابن هشام الأنصاري ، شرح شذور الذهب ، ومعه كتاب منتهى الأدب بتحقيق شرح شذور الذهب ، تأليف محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية - صيدا ، بيروت ، ص 13.
- 2- فاضل مصطفى الساقى : أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة ، الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة ، سنة 1397هـ - 1977م ، ص 246.
- 3- جلال الدين السيوطي : الأشباه والنظائر في النحو ، تحقيق طح عبد الرؤوف سعد ، مكتبة الكليات الأزهرية ، طبعة 1395هـ - 1975م ، ج 2 ص 4-5 ، وينظر فتح الله صالح المصري : الأدوات المفيدة للتنبيه في كلام العرب ، ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر ، ص 9.
- 4- ابن هشام : مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، تحقيق ، د.مازك المبارك ومحمد علي حمد الله ، مراجعة سعيد الأفغاني ، الطبعة الخامسة 1979م - دار الفكر - بيروت ، ص 17.

- 5- السيوطي : الإتقان في علوم القرآن ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، صيدا- بيروت ، 1408هـ- 1988م ، ج2/140.
- 6- ينظر محمد الأنطاكي ، المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها ، الطبعة الثالثة ، دار الشرق العربي - بيروت ، لبنان ، ج3 ، ص 80.
- 7- ابن منظور : لسان العرب ، دار صادر - بيروت ، لبنان ، ج9 ، ص 41.
- 8- محمد حسن الشريف : معجم حرف المعاني في القرآن الكريم ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى 1417هـ- 1996م ، الجزء 1 ، تمهيد ق.
- 9- سورة الحج ، الآية 11.
- 10- الحسن بن قاسم المرادي : الجنى الداني في حروف المعاني ، تحقيق ، د. فخر الدين قباوة والأستاذ محمد ندير فاضل ، الطبعة الثانية ، 1403هـ- 1983م ، دار الأفاق الجديدة - بيروت ، لبنان ، ص 25.
- 11- ابن منظور : لسان العرب ، ج9 ، ص 42 ، وينظر المعجم الوسيط ، إخراج د. إبراهيم أنيس ود. عبد الحلیم منتصر وغيرهما ، دار الفكر ، ج1 ، ص 167.
- 12- ينظر ابن جني : سر صناعة الإعراب ، دراسة وتحقيق د. حسن هندأوي ، دار القلم - دمشق الطبعة الثانية 1418هـ- 1993م ، ج1/15-17 ، وعوض محمد القوزي : المصطلح النحوي نشأته وتطوره ، ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر 1983م ، ص 22.
- 13- ينظر ابن منظور : لسان العرب ، ج9 ، ص 41.
- 14- ينظر مختار بوعناني : مقال "ألف الوصل" ، عن مجلة القلم ، مجلة يصدرها أساتذة من قسم اللغة العربية وآدابها ، وهران - السانبة ، 2001/1 ص 37.
- 15- أبو القاسم الزجاجي : الإيضاح في علل النحو ، تحقيق ، د. مازن المبارك ، الطبعة الرابعة ، دار النفائس ، ص 54.
- 16- ينظر منصوري ميلود : السمات الدلالية لحروف الجر ، 1419هـ- 1998م ، مؤسسة الطباعة لولاية مستغانم ، ص 19-20.
- 17- سيبويه : الكتاب ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون ، الطبعة الثانية ، 1408هـ- 1988م ، مكتبة الخانجي ، القاهرة - مصر ، ج1 ، ص 12.
- 18- ابن يعيش : شرح المفصل ، عالم الكتب - بيروت ، مكتبة المتنبّي - القاهرة ، ج8 ، ص 4.

- 19- ابن هشام : شرح شذور الذهب ، ص 14.
- 20- ابن يعيش شرح المفصل، ج8، ص 2.
- 21- ابن منظور : لسان العرب ، ج9 ، ص 41.
- 22- ينظر سيبويه : ج 1 ، ص 12 وابن يعيش : شرح المفصل ، ج8/ص2 والمرادي : الجنى الداني ، ص 20.
- 23- السيوطي : الأشباه والنظائر ، ج2 ، ص 4-5.
- 24- المرادي : الجنى الداني ، ص 22.
- 25- محمد حماسة عبد اللطيف : النحو والدلالة ، كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة - القاهرة 1403هـ-1983م ، ص 48 ، وينظر الأطرش السنوسي : مقال "علاقة الأحكام الشرعية بالإعراب" عن مجلة الحضارة الإسلامية يصدرها المعهد الوطني للتعليم العالي للحضارة الإسلامية ، وهران ، العدد الثاني ذو القعدة ، ذو الحجة 1416هـ ، أبريل 1996م.
- 26- ابن هشام: مغني اللبيب، ص95.
- 27- محمد حماسة عبد اللطيف: النحو والدلالة، ص 48-49.
- 28- ينظر السيوطي : الأشباه والنظائر ، ج2 ، ص 13.
- 29- ينظر الخليل بن أحمد وابن السكيت والرازي : ثلاثة كتب في الحروف ، تحقيق د.رمضان عبد التّوّاب ، الطبعة الأولى 1402هـ-1982م، الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة ، دار الرفاعي بالرياض ، ص5-7.
- 30- ينظر المالقي : رصف المباني في شرح حروف المعاني ، تحقيق د.أحمد محمد خراط الطبعة الثانية 1405هـ-1985م ، دار القلم - دمشق ، ص 21.
- 31- سيبويه : الكتاب ، ج4 ، ص 216-235.
- 32- ينظر المرادي : مقدمة الجنى الداني ، ص 3.
- 33- ينظر الزجاجي، مقدمة حروف المعاني، تحقيق وتقديم د. علي توفيق الحمد، الطبعة الثانية 1406هـ-1986م، دار الأمل، الأردن، ص 19.
- 34- سورة الحج، الآية 30.
- 35- سورة الأعراف، الآية 59.
- 36- الرماني : معاني الحروف ، تحقيق د. عبد الفتاح إسماعيل شلبي ، دار نهضة مصر للطبع والنشر - القاهرة ، ص 97.

- 37- ينظر المالقي : مقدمة رصف المباني ، ص 26.
- 38- ينظر المصدر السابق ، ص 27.
- 39- ينظر الزجاجي : مقدمة حروف المعاني ، ص 37-38.
- 40- ابن هشام: مغني اللبيب، ص 17.
- 41- ينظر بدر الدين الزركشي : البرهان في علوم القرآن ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، الطبعة الثانية ، دار المعرفة - بيروت ، لبنان ، ج 4 ، ص 175.
- 42- سورة سبأ، الآية 24.
- 43- سورة الكهف ، الآية 19.
- 44- سورة التوبة، الآية 60.
- 45- السيوطي : الإتيان في علوم القرآن ، ج 2 ، ص 140.
- 46- السيوطي : معترك الأقران في إعجاز القرآن ، تحقيق علي محمد البجاوي ، دار الفكر العربي ، ج 1 ، ص 517.